# الباب السادس

## في بيان أقسامه، بحسب اختلاف قوته وضعفه، ومقاومته لجيش الهوى، وعجزه عنه

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

**أحدها** ـ أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين، فيرد جيش الهوى مغلولاً، وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ (فصلت: ٣٠) وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (فصلت: ٣٠ ـ ٣١) وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهَدوا في الله حق جهاده، وخصَّهم بهدايته دون من عداهم.

**الحالة الثانية**: أنْ تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا وله معهم حالتان:

**إحداهما**: أنْ يكون من جندهم، وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف.

**والثانية**: أنْ يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القويُّ المتسلِّط، والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنتُ امرءًا من جندِ إبليسَ فارتقى ... بيَ الحالُ، حتى صار إبليسُ من جندي!

فيصير إبليس وجنده من أعوانه، وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وانما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة

الأعداء، وجند أصحابها المكر والخداع، والأماني الباطلة، والغرور والتسويف، بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجزُ منِ أتبعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني**» وأصحاب هذه الحال أنواع شتى فمنهم المحارب لله ورسوله الساعي في إبطال ما جاء به الرسول يصدّ عن سبيل الله، ويبغيها جهده عِوجاً وتحريفاً؛ ليصد الناس عنها ومنهم المعرض عما جاء به الرسول المقبل على دنياه وشهواتها فقط ومنهم المنافق ذو الوجهين الذي يأكل بالكفر والإسلام ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللعب، ومنهم إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذّرت علي، فلا مطمع لي فيها.

ومنهم من يقول: ليس الله محتاجٌ إلى صلاتي، وصيامي وأنا لا أنجو بعملي والله غفورٌ رحيم.

ومنهم من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثّر ما استطعْتَ من الْخَطايا ... إذا كان الْقُدومُ على كريمِ!

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنبِ ما قد عملتُ؟ وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق؟ ومنهم من يقول: سوف أتوب وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقُبلت توبتي إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحِيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يدِ الكافر يستعمله في رعاية الخنازير، وعصر الخمر، وحمل الصليب وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجلٍ قهر مسلماً وباعه للكفار وسلّمه إليهم وجعله أسيراً عندهم.

## فصل [في نكتةٍ بديعة]

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها وينبغي إخلاء القلب لتأملها وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدْره وسلّمه في يد

أبغض أعدائه إليه وجعله أسيراً له تحت قهره، وتصرّفه وسلطانه سلّط الله عليه مَن كان حقه هو أنْ يتسلّط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه فكما أذلّ سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلّط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره فصار بمنزلة مَن سلّم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (النحل: ٩٨ ـ ١٠٠) فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ (إبراهيم: ٢٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ (سبأ: ٢٠ ـ ٢١) قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

**أحدهما**: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته والسطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حُجّة وتسلّط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

**الثاني**: أن الله لم يجعل له عليه سلطاناً ابتداء البتة، ولكن هم سلّطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن مَن قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلّمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يُسلّط عليه ذلك العدو نفسه.

## فصل [في أنّ الحرب سجال بين الجندين]

**الحالة الثالثة**: أن يكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين فتارة له وتارة عليه وتكثر نوبات الانتصار وتقل وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومن الناس من يصير بجهد وشقة، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار، ثم يدخل الجنة وفي هذه الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض، فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة ومنهم مَن يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء، ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوبا فهو متردد بين الصحة والمرض.

## فصل [فيمن يصبر بأدنى حمل على النفس]

من الناس يصبر بأدنى حمل على النفس، ومثال الأول: كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة.

**والثاني**: كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصرعه بغير مشقة، فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، ومَن صرع جند الشيطان صرع الشيطان.

**قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه**: لقي رجلاً من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي فقال: مالي أراك ضئيلاً فقال: **«إني من بينهم لضليع»**. فقالوا: أهو عمر بن الخطاب؟ فقال: **«مَن ترونه غير عمر»**. وقال بعض الصحابة: **«إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في السفر»** وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن شيطاناً لقي شيطاناً فقال: مالي أراك شحيباً؟ فقال: إنني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وان دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر:

لكنني مع رجل إن أكل لم يسمّ الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسمّ الله فأشرب معه وإن دخل داره لم يسمّ الله فأدخل معه، وإنْ جامعَ امرأته لم يسمّ الله، فأجامعها فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أنْ ينال منه غرضه.

□

obeikandl.com